٤

WWW.ATTAWEEL.COM

أسئلة الكتاب صـ ٢٠

ابن جبير في رحلته
قراءة في الجوانب الجغرافية للرحلة

دراسة

د. فلاح شاكر اسود

جامعة بغداد / كلية الاداب

يكنى بابي الحسن وهو محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي، الذي ولد في العاشر من شهر ربيع الاول من عام خمسمائة واربعين للهجرة (٥٤٠ هـ) المصادف الف ومائة وخمسة واربعين للميلاد (١١٤٥ م) في مدينة بلنسية احدى مدن الساحل الاندلسي، وينحدر من سلالة اسرة عريقة استقرت بالاندلس في عام مائة وثلاث وعشرين للهجرة (١٢٣ هـ) المصادف سبعمائة واربعين للميلادي (٧٤٠ م). وتوفى بالاسكندرية في رحلته الثالثة.[1]

ان ولعه وتمكنه بالادب والشعر لم يكسبانه شهرته التي نالها بصورة مباشرة، الا انها اعانته كثيراً على تدوين رحلة الحج التي قام بها احتساباً لله، باسلوب ادبي رفيع وعلمي دقيق جعلته في مصاف الخالدين والمشهورين، علماً من اعلام الرحلة في الادب الجغرافي العربي.

وقد دخلت اسرته الاندلس مع القائد بلج بن بشر بن عياض القشيري. والتحق ابن جبير وهو في سن مبكرة باعمال الدواوين والكتابة كأبيه، وعمل مدة طويلة كاتباً لحاكم غرناطة من الموحدين.[2]

وغادر غرناطة وما يزال في ريعان الشباب لاداء فريضة الحج برفقة احد الاطباء احمد بن حسان، واستغرقت هذه الرحلة من شباط عام (٥٧٨ هـ) ولغاية نيسان (٥٨١ هـ) (١١٨٣ ـ ١١٨٥ م) وهي اكثر من عامين دون فيها يومياته، وقد حملت هذه الرحلة عناوين مختلفة، مثل كتاب اعتبار الناسك في ذكر الاثار الكريمة والمناسك، وعنوان تذكير بالاخبار عن اتفاقات الاسفار، والعنوان الثالث رحلة ابن جبير.[3]

ثم قام برحلته الثانية عند سماعه بتحرير صلاح الدين الايوبي لبيت المقدس في عام (٥٨٣ هـ ـ ١١٨٧ م). حيث قام برحلة لمدة عامين ٥٨٥ ـ ٥٨٧ م (١١٨٩ ـ ١١٩١ م). ثم قام برحلته الثالثة وهو شيخ كبير بعد وفاة زوجته في عام ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) واستغرقت عشرة اعوام، متنقلاً بين مكة وبيت المقدس والقاهرة، مشتغلاً بالتدريس والادب حتى توفى في الاسكندرية في عام ٦١٤ هـ (١٢١٧ م). ولم يترك لنا في هاتين الرحلتين من اثار علمية مكتوبة مثل ما ترك في رحلته الاولى.[4]

وقد اشار بعض الباحثين الى ان القيمة التاريخية للرحلة اكثر من قيمتها الجغرافية. فقد قدمت معلومات مهمة عن الحقبة التاريخية خلال المدة التي امضاها ابن جبير متجولاً بين بلدان المشرق خلال حكم الايوبيين والغزو الصليبي. ورسم صورة واضحة عن صلاح الدين الايوبي وانجازاته في مصر والشام والحجاز واصلاحاته الدينية والعمرانية وتوطيد دعائم العدل والاستقرار. كما اشار الى العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام والتسامح بينهما ووضع المسلمين في جزيرة صقلية اثناء حكم النورمان. اما قيمتها الجغرافية فهي اقل اهمية فلم يعن بالجانب الطبيعي كالسطح والمناخ والموارد المائية الا اشارات محدودة عن الجبال والصحارى والانهار، كما اهمل المظاهر

WWW.ATTAWEEL.COM

الاقتصادية كالصناعة والزراعة واكتفى بوصف عام. وقد ركز على الجوانب الثقافية والدينية.[٣]

ان معاملة رحلة بن جبير على اساس انها مؤلف تاريخي او جغرافي لا تخلو من اجحاف بحقها لان التقويم لابد ان يتم وفق الهدف المرسوم لهذه الرحلة فهي رحلة للحج وكثير ما كان هذا العامل قد استهوى كثير من الناس من المغرب والمشرق لاداتها، لما ورد فيها من الايات الكريمة في التأكيد على فضائل مكة والمدينة وما تحوياه من الحرم المكي والمدبني. وقد فضل الله مكة المكرمة على سائر البلاد، وذكرها في مواضع عدة ما يقارب من تسع عشر آية من القرآن الكريم. * كما ورد بحقهما عدد لا يحصى من الاحاديث النبوية الشريفة.[٤] *

ان هذا التأكيد الواضح على هذا الفرض من فروض الدين جعلت الرغبة تراود نفس كل مسلم لكي يزور هذه الاماكن المقدسة، مهما بعدت المسافات او عظمت المخاطر. وكان ابن جبير احد هؤلاء الذين وفدوا لزيارة هذه الاماكن المقدسة واداء فريضة الحج وسنة العمرة والمجاورة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهذا يدعونا الى التأكيد الى ان ابن جبير اراد من وراء تسجيل مذكراته. ان يرسم طريق الحج بحراً وبراً ليكون كتابه دليل سفر لمن اراد ان يسلك هذا الطريق من القاصدين لبيت الله الحرام. ولهذا كان يؤكد من خلال رحلته على ما يعترض الحاج من المشاق. وان يرسم بدقة صورة صادقة لهذا الطريق ومدنه وقراه وما تحويه من الاثار والمشاهد المباركة والاماكن التي تزار. كما حذر الحجاج الذين يرغبون في اداء فريضة الحج من سلوك طريق الاسكندرية ـ عيذاب جدة ونصحهم رفقة قافلة الامير العراقي. وهو الطريق الذي يرجع فيه ابن جبير، بعد ان قرر عدم العودة على طريق القدوم السابق ولما لاقاه من المعاملة القاسية عند نزوله الى الاسكندرية وطلوع امناء السلطان الى المركب لتقييد جميع ما جلب فيه واخذ الزكاة من الاموال التي لا تستحق الزكاة شرعاً، وتفتيش حاجياتهم بشكل لا يتناسب مع مكانتهم حيث ادخلت الايدي الى اوساطهم بحثاً عما عسى ان يكون قد اخفوه ثم استحلفوا بعد ذلك. وقد ذهب كثير من حاجيات الناس لاختلاط الايدي وتكاثر الزحام.

كما دون مواقف اطلق عليها خزياً ومهانة. وهذا ماتعرض له وفود الرحمن مرة اخرى في اخميم بحثاً عن الاموال والحاجيات بحجة الزكاة وصعود رجال الى المركب بايديهم المسال الطوال ذوات الانصبة لاستكشاف مافي حاجيات الركاب.

وهذا ماجعل ابن جبير ينصح الحجاج سلوك طريق الشام ـ العراق ثم رفقة قافلة الحاج البغدادي. وهذا يوضح بان الرحلة هي دليل لمن اراد السفر قاصداً بيت الله الحرام وزيارة المسجد النبوي الشريف.

ولما كان هدف الرحلة هو الحج. فقد الزمت ابن جبير ان يسلك طريقاً واضحاً، هو الطريق الذي يسلكه الحجاج من الاندلس (اسبانيا) حيث عبر البحر المتوسط الى الاسكندرية ثم نهر النيل ثم البحر الاحمر ثم البادية باتجاه العراق والشام والبحر المتوسط مرة اخرى. حيث الرجوع الى مقر سكناه في الاندلس. وان هذه الرحلات كانت تسير بشكل قوافل مما لا يتيح لابن جبير ان يبتعد كثيراً عن هذا الطريق او التخلف عنها. لذا فانه اقتصر على تدوين ماشاهده خلال هذا الطريق او قريباً منه.

ورغم ذلك فان ماورد في هذه الرحلة من المعلومات الجغرافية كان ذا قيمة كبيرة باعتبار ان ماورد عن طريق جانب من جوانب الدراسة الميدانية وهي المشاهدة الشخصية، والتدوين اليومي لهذه المشاهدة، وخصوصاً ان ابن جبير كان متمكناً من حيث الثقافة والقدرة الفائقة في التدوين والكتابة والتعبير دون ان يطيل او يسهب في العرض، كما ان هذه الرحلة لدقتها خلت تماماً من الاساطير والخرافات، وان القارىء لا يشك في اي شيء ورد فيها. كما لا يشعر ان كاتبها كان متحيزاً لاي جانب من الجوانب.

الطريق الذي سلكه ابن جبير في رحلة

بدأ من غرناطة حتى ساحل الاندلس (اسبانيا) حيث اقلع يوم ٢٩ شوال (٢٤ شباط). مر على مجموعة من الجزر في البحر المتوسط (ميورقة، منورقة * . سردانية صقلية. (قرطيش (كريت) ثم جزائر الحمام (بين السلوم وطبرق). ثم نزل الاسكندرية وقد استغرقت الرحلة ثلاثين يوماً. وصف فيها عواصف البحر المتوسط التي تهب بشكل متقطع، وما تعرضت له المراكب من الاهوال والمخاطر.

وسلك طريق نهر النيل، ومر على مجموعة من المدن والقرى التي تقع على جانبي النهر مثل دمنهور، قليوب، المنية، القاهرة، منفلوط، اسيوط، اخميم، وشنة، دندره، قنا، قوص. وقد استغرقت الرحلة (١٨) يوماً.

ثم تجمع الحجاج والتجار مع حاجياتهم في منطقة واسعة تسمى المبرز تحيط بها اشجار النخيل، فاستبدلوا واسطة النقل

المائية بواسطة النقل البرية وهي الجمال فوزنوا حاجياتهم وتهيأوا لقطع الصحراء بين قوص وعيذاب وهي صحراء قاحلة.

ثم قطع بحر جدة وهو البحر الاحمر بين عيذاب وجدة واستغرق العبور ثمانية ايام بسبب اهوال الرياح والشعاب رغم قدرة الرؤوساء والنواتية وخبرتهم الدقيقة لمعرفة المسالك والطرق.

وبعدها سافر برأ من جدة الى مكة حيث اقام فيها ثمانية اشهر وثلث شهر حيث دخلها يوم ١٣ ربيع الاخر سنة ٥٧٩ هـ، ورحل عنها ٢٢ ذي الحجة سنة ٥٧٩ هـ اي حوالي ٢٤٥ يوماً.

وعاد مع قافلة الامير العراقي من مكة بطريق صحراء البادية الى بغداد، بعد ان ضاق ذرعاً من الاستغلال والتعسف مما اعطاه مبرراً لتصديق بعض فقهاء اهل الاندلس الذين اسقطوا الفريضة عنهم لهذه الاسباب.

وقد مرت القافلة من الزاهر الى وادي بطن ثم عسفان ثم خليص ثم شعب علي حتى المدينة المنورة ومنها الى الكوفة والحلة وبغداد بعد ان مرت القافلة ضمن طريق واضح متتبعة موارد المياه الجوفية.

ومن بغداد سلك الطريق الموازي لنهر دجلة الى سامراء وتكريت والقيارة والموصل ونصيبين ثم مدينة رأس العين وحران ومنبج وحلب وقنسرين وحماه وحمص ودمشق وبانياس وعكة وصور ثم عاد الى عكة حيث اخذ مركباً عبر البحر المتوسط الى بر الاندلس ثم الى غرناطة موطنه الذي خرج منه.

المعلومات الجغرافية التي وردت في الرحلة.

المظاهر الطبيعية:

١ ـ اشار الى عواصف البحر المتوسط ومخاطرها على الملاحة في المنطقة وتعرض المراكب الى الغرق عند هبوبها، وسهولة الملاحة عند هدوئها واستقرارها وكذلك الى الرياح والشعب المرجانية التي تعترض سير الملاحة في البحر الاحمر بين عيذاب وجدة ورغم قصر المسافة فان الرحلة استغرقت ثمانية ايام، ولولا حذاقة الملاحين ودرايتهم ومعرفتهم بالمسالك الضيقة والمتعرجة لتعذر السير في البحر الاحمر.

وقد عبر عن اعاصير البحر المتوسط بانها رياح شديدة اتت بامطار غزيرة وامواج امثال الجبال السائرة حتى لم يثبت شراع فلجأ الى استعمال الشرع الصغار، ولما هدأت الاعاصير سكن البحر وطاب السحاب والهواء وظهرت الشمس وان التخلص من بحر سردانية من اصعب ما في الطريق والخروج منه يتعذر في اكثر الاحيان.

٢ ـ وصف مجموعة من الجبال مر عليها في طريقه مثل جبل صقلية التي فيها بركان اثنا، وقال بعد مغادرته صقلية انه شاهد الجبل الذي فيه البركان وهو جبل عظيم مصعد في جو السماء وقد كساه الثلج.

ثم جبل المقلة شرق النيل على نصف المسافة بين مدينتي مصر وقوص وفي مكة اشار الى جبال ثور وجبل الطبول وجبل ابي قبيس، وبعد المدينة مر على جبل المحزوق وهو جبل في بيداء من الارض وفي سفحه الاعلى ثقب نافذ تخترقه الريح، وبذلك اشار الى ظاهرة التعرية في المناطق الصحراوية وعند مروره على دمشق وصف جبل قاسيون. ثم جبل لبنان الذي قال عنه انه جبل عالي الارتفاع يتصل من البحر الى البحر ويكون حدوداً بين المسلمين والافرنج.

٣ ـ اشار الى ظاهرة نحت نهر النيل في الجانب الغربي امام قرية نشأة السودان بعد مدينة اخميم. وقد عالج سكان هذه القرية هذه الظاهرة بانشاء رصيف عال من الحجارة كأنه السور يضرب فيه النيل ولا يعلوه عند فيضه وبذلك استطاعوا الحد من ظاهرة النحت وتآكل الساحل وثباته، كما استطاعوا تعلية هذا الحاجز الصخري بشكل لا يتجاوزه النيل عند ارتفاع المياه وقت الفيضان مما جعل القرية وسكانها يعيشون في أمن واستقرار من مخاطر نهر النيل.

٤ ـ اشار الى مغاص اللؤلؤ في البحر الاحمر، حيث قال: في بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها، ووقت الغوص شهر حزيران (يونية) والذي يليه، ويستخرج منه جوهر نفيس.

٥ ـ اشار الى مواضع الوديان والابار والعيون والبرك والصهاريج المملوءة بمياه المطر على طريق البادية بين نجد والعراق، وذلك لاهمية هذه الموارد لانها تحدد المسالك والطرق التي تسلكها قوافل الحجاج والتجار والمسافرين. واشار الى نوعية المياه في المواضع التي مر بها من حيث عذوبتها وصلاحيتها للشرب.

وقد ذكر مشروع زبيدة ابنة جعفر بن ابي جعفر المنصور زوجة هارون الرشيد وابنة عمه، عندما اوصلت المياه الى مكة وعلى طريق الموصلة اليها، وقد اطلق عليها المصانع، وهي

منتشرة في الطريق بشكل مرافق ومنافع عمت المنطقة ولولا اثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذه الطريق.

٦ ـ اشار الى الانهار المهمة التي صادفها وهي نهر النيل ونهر الفرات ونهر دجلة، حيث قطع النيل بين الاسكندرية وقوص. ثم قطع نهر الفرات بين الكوفة والحلة، ثم سار مع نهر دجلة بالطريق البري بين بغداد والموصل حتىٰ الشام.

كما ذكر الانهار الصغيرة التي مر بها نهر دجيل المتفرع من نهر دجلة، ويسقي القرى والبساتين والاراضي الزراعية الواقعة عليه وكذلك نهر الخابور ونهر العاصي الذي يقع شرق مدينة حماه في بلاد الشام.

اما البحيرات فقد اشار الى بحيرة طبرية التي تقع قرب جبل الطور، وتمتاز مياهها بعذوبتها.

المظاهر البشرية.

اولاً ـ الزراعة

لفت انتباه ابن جبير اتساع الزراعة في دلتا نهر النيل ووديه بشكل كبير، وقد استنتج ذلك من انتشار القرى على جانبي النهر، فالمنطقة المحصورة بين الاسكندرية ودمنهور والقاهرة متصلة وسهلة كلها محروثة يعمها النيل بفيضه والقرى فيه يميناً وشمالاً لا تحصى من كثرتها. والعمارة متصلة والقرى منتظمة في الطريق كله. ولما مر على مدينة قوص صاعداً في النيل على الصعيد ذكر بان القرى متصلة في شطي النيل. وقد اقتصر على ذكر القرى الكبيرة منها فقط، لانه لو ذكر كل القرى والمواضع على شطي نهر النيل لضاق الكتاب لكثرة القرى الصغيرة.

كما اشار الى البساتين التي تحيط بكثير من المدن الواقعة على نهر النيل والى اشتهار مدينة منفلوط بانتاج القمح، حتى ان قمحها يجلب الى مصر لطيبه ورزانة حبته. واشتهار مدينة دندره في صعيد مصر باشجار النخيل وثمورها التي تميزت بطيبها.

وفي طريق عودته باتجاه العراق اشار الى خصب وادي بطن مر وكثرة نخيله مما ادى الى انتشار القرى الكثيرة ومنه تجلب الفواكه الى مكة المكرمة. ثم في منطقة خليص ووادي السمك حيث تنتشر اشجار النخيل.

ولم يشر ابن جبير بعد ذلك الى وجود زراعة في الطريق الصحراوي سوى توفر موارد المياه من الابار والبرك والمصانع في الطريق لتزويد الحجاج والمسافرين والتجار وحيواناتهم بالماء الذي يعينهم على مواصلة السير. ولما اشرف على سهل العراق الرسوبي بدأ ابن جبير يذكر اهمية هذه المنطقة، ففي قرية القادسية اشار الى بساتين النخيل التي تسقىٰ من مشاريع نهر الفرات. ثم مدينة الحلة التي قال عنها انها متصلة بأشجار النخيل. اما الطريق بين الحلة وبغداد فهو احسن طريق واجمله في بسائط من الارض، وعمائر تتصل بها القرىٰ يميناً وشمالاً، وتشقها مشاريع عديدة من نهر الفرات عبر عنها (باغصان من ماء الفرات). تتسرب بها وتسقيها، واوضح بان ارضها الزراعية واسعة وممتدة حيث قال فمحراثها لاحد لاتساعه وانفساحه ثم وصف القرى التي مر بها مثل قرية القنطرة، حيث قال عنها كثيرة الخصب كبيرة المساحة، متدفقة جداول الماء، وافرة الظلال بشجيرات الفواكه من احسن القرىٰ واجملها، وشاهد فيها حصاد الشعير وقرية الفراش كثيرة العمارة يشقها الماء وحولها بسيط اخضر جميل المنظر. وقرىٰ هذه الطريق بين الحلة وبغداد على هذه الصفة من الحسن والاتساع. ثم قرية بزريدان (المدائن) وهي من احسن قرىٰ الارض واجلها منظراً واوسعها ساحة واختطاطاً واكثرها بساتين ورياحين وحدائق نخل، يسقي دجلة شرقيها، والفرات غربيها وهي كالعروس بينها، والبسائط والقرىٰ والمزارع متصله بين هذين النهرين.

ثم قرية صرصر وهي على ثلاثة فراسخ من بغداد يسقيها نهر كبير متفرع من الفرات وهي من القرىٰ التي تملأ النفوس بهجة وحسناً.

ثم اشار الى الزراعة على طول نهر دجلة من بغداد باتجاه الموصل حيث تنتشر القرىٰ الخصبة.

كما ذكر الزراعة في بلاد الشام فمدينة نصيبين يمتد امامها وخلفها في بسيط اخضر من البصر. اجرىٰ الله فيه مذانب من الماء تسقيه، تحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار يانعه الثمار، ينساب بين يديها نهر انعطف عليها كالسوار، والحدائق تنتظم بحافتيه وتفيء بظلالها الوارفة عليه.

وحول مدينة دنيصر بساتين الرياحين والخضر لتسقىٰ بالسواقي وفي حديثه عن مدينة رأس العين ـ اشار الى ان الله فجر في ارضها عيوناً واجراها ماء معيناً. فتقسمت مذانب، وانسابت جداول تنبسط في مروج خضرٍ، فكأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد تحف بها اشجار وبساتين قد انتظمت حافتيها الى اخر انتهائها من عمارة بطائحها.

ومدينة منبج يحف بغربيها وشرقيها بساتين ملتفة الاشجار مختلفة الثمار. وعن مدينة بزاعة ترف بساتينها خضرة ونضارة. وذكر عن مدينة قنسرين بان قراها عامرة منتظمة لانها على بحرث عظيم من البصر عرضاً وطولاً. ثم بلاد المعرة مغطاة كلها بشجر

الزيتون والتين والفستق وانواع الفواكه. ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من اخصب بلاد الله واكثرها ارزاقاً. كما ذكر عن مزارع العنب والبساتين والاراضي الزراعية خارج مدينة حماه. وتحيط مدينة دمشق حلل سندسيه من البساتين، كما امتدت الى شرقها غوطتها الخضراء امتداد البصر، ولمدينة بانياس محراث واسع.

نظام الري

١ ـ الاهتمام بكمية المياه في الانهار من خلال المقاييس المقامة عليها فمقياس نهر النيل يستفاد منه في قياس زيادة نهر النيل عند فيضه كل سنة، وهو عمود رخام ابيض مثمن في موضع يسخر فيه الماء عند انسيابه اليه، وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعاً مقسمة على اربعة وعشرين قسماً تعرف بالاصابع.

فاذا استوفى الماء تسع عشرة ذراعاً منغمرة فيه، فهي الغاية عندهم في طيب العام.

واذا استوفى سبع عشرة ذراعاً فهي المتوسط، ويكون احسن من الزيادة المذكورة.

واذا استوفى ست عشرة ذراعاً فصاعداً يستحق السلطان خراجه في بلاد مصر، وعليها يعطى البشارة الذي يراعى الزيادة في كل يوم، والزيادة في اقسام الذراع المذكورة، ويعلم بها مياومة حتى تستوفى الغاية التي يقضي بها.

واذا قصر عن ست عشرة ذراعاً فلا مجيء للسلطان في ذلك العام ولا خراج وهذا يوضح مدى الدقة في الاهتمام بكمية مياه الري وتوزيعها وعلاقتها بمساحة الارض المزروعة وكمية الانتاج من الحبوب والمحاصيل الاخرى، وارتباطها بحياة الناس ومستوى معيشتهم.

٢ ـ القناطر التي توزع المياه في السواقي

ومن هذه القناطر هي المقامة على نهر النيل، بنيت غرب مصر على مقدار سبعة اميال، بعد وصف ابتدىء به من جهة النيل بازاء مصر كأنه جبل ممدود على الارض تسير فيه مقدار ستة اميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة وهي على نحو الاربعين قوساً من اكبر ما يكون من قسيّ القناطر. والقنطرة متصلة بالصحراء التي يفضي منها الى الاسكندرية.

وقد اشار ابن جبير الى ان هذه القناطر رغم استخدامها في الري والزراعة فان لها هدف عسكري حيث تحمي البلد من عدو قادم من جهة ثغر الاسكندرية. حيث تغمر الارض عند فيضان نهر النيل لمنع سلوك العساكر واجتيازها باتجاه البلد.

ثم اشار الى القناطر بين الحلة وبغداد والتي تعترض الطريق كله. فلا تكاد تمشي ميلا الا وتجد قنطرة على نهر متفرع من نهر الفرات فهي اكثر الطرق سواقي وقناطر وتوزع هذه القناطر المياه على السواقي التي تروي الاراضي الزراعية الممتدة وكذلك مدينة دنيصر في بلاد الشام حيث تروى بالسواقي.

٣ ـ الري بواسطة العيون:

ذكر ابن جبير بان مدينة راس العين اشتق اسمها من كثرة العيون، حيث تتوزع مياه هذه العيون في جداول وسواقي تسقي اراضيها الواسعة الخضراء، واعظم هذه العيون، عينان احدهما فوق الاخرى، فالعليا تنبع من منطقة صخرية، ثم يتجمع ماؤها في صهريج عظيم، حيث ينساب منه نهر كبير ينتهي الى العين الاخرى ويلتقي بمائها. اما الثانية فمنابعه تحت الارض من الحجر الصلد ثم تندفع بقوة الى الاعلى حتى يسيل ماؤها على سطح الارض. ثم تنقسم مياه العينين الى نهرين يلتقيان بعد ذلك.

ثانياً: التجارة

١ ـ الكمارك والمكوس

لقد اشار ابن جبير الى المعاملات الكمركية التي كانت سائدة عند دخول الموانىء. فعند نزوله في ميناء الاسكندرية، طلع الى المركب موظفو الكمارك لتسجيل جميع البضائع التي جلبها المسافرون. وسأل كل شخص عما لديه من السلع والاموال، واستدعى كل مسافر مع حاجياته على انفراد، ثم فتش جميع المسافرين. ورغم اعتراض ابن جبير على المعاملة القاسية التي اتسمت بالاهانة والخزي من قبل امناء السلطان. فان ذلك يوضح بان المعاملات الكمركية كانت سائدة في تثبيت اسماء من دخل البلاد، وما وجد معه من الاموال والبضائع.

وكذلك عند الخروج من البلاد، ما تعرض له المسافرون من الحجاج والتجار في اخميم من التفتيش ومعرفة ما لدى كل منهم من البضائع والاموال.

وفي ميناء عيذاب يؤخذ على كل حمل طعام يحمله الحجاج او التجار ضريبة معلومة خفيفة المؤونة بالاضافة الى الوظائف المكوسية.

٢ ـ المراكز التجارية والاسواق

ذكر ابن جبير وجود اماكن مثلت مراكز تجارية مثل مدينة

قوص، وهي حفيلة الاسواق متسعة المرافق، كثيرة السكان، لكثرة المصادر والموارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود وتجار الحبشة، فهي مخطر للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم.

ثم منطقة المبرز الواقعة بين قوص وعيذاب، حيث يتجمع فيها جميع المسافرين مع احمالهم. وهي منطقة منبسطة واسعة تحيطها اشجار النخيل، وفيها يتم وزن البضائع وشدها على الجمال التي تنقلها الى عيذاب عبر الصحراء، كما يستقي منها المسافرون وتنطلق منها القوافل.

وشاهد في طريق عودته من الحجاز الى العراق موضع حصن فيْد وهي منطقة معمورة بسكان الاعراب، حيث يتم فيها التجارة والمبايعة من قبل السكان وهي على نصف الطريق بين المدينة وبغداد.

كما اشار الى موضع الثعلبية فيه اوسع الصهاريج واعلاها غزيرة المياه، حيث يتجمع فيه جمع كثير من الاعراب رجالاً ونساءً عقدوا فيه سوقاً عظيمة للجمال والكباش والسمن واللبن وعلف الابل.

وذكر عن مدينة عكة بانها ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق.

٣ ـ السلع التجارية.

هناك انواع كثيرة من البضائع التي ذكرها ابن جبير، شاهدها بنفسه مثل محصول القمح في مدينة منفلوط الذي تميز بجودته وكبر حبته، حيث يقوم التجار بنقله بالمراكب الى القاهرة.

كما شاهد في الصحراء الممتدة بين مدينة قوص وميناء عيذاب على البحر الاحمر، القوافل العيذابية القادمة من البحر باتجاه الداخل والقوافل القوصية القادمة من الداخل باتجاه البحر وهي صادرة واردة، في طريق صحراوي يسوده الامن. وحاول احصاء عدد هذه القوافل، ولكنه لم يستطع لكثرتها وخاصة القوافل العيذابية التي تحمل البضائع المستوردة عن طريق ميناء عيذاب وهي تحمل سلع الهند الواصلة الى اليمن، ثم تنقل بطريق البحر الى ميناء عيذاب ثم تنقل بواسطة الجمال بطريق البر. حيث تتوزع الى مناطق احتياجها. واكثر ما شاهد من احمال هذه الجمال هي الفلفل حتى قال لكثرته انه رخيص الثمن، بوازي التراب قيمة. ومن عجب ما شاهده بهذه الصحراء انه وجد احمال الفلفل والقرفة وسائر السلع مطروحة لا حارس لها، لاعياء الابل الحاملة لها، او غيرها من الاسباب، وتبقى في موضعها الى ان ينقلها صاحبها مصونة من الافات على كثرة المارة عليها من مختلف الناس.

وذكر عن البضائع المستوردة الى مكة المكرمة، حيث وجد ان البضائع التي تجلب اليها من الهند والحبشة والعراق واليمن وخراسان والمغرب، ما لاتحصى ولا تعد. ومن كثرتها انها تبقى الموسم كله. وما يباع فيها في يوم واحد ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الاسواق النافعة. ومن البضائع والسلع التي اشار اليها الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الاحجار. ومن انواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية وغيرها من البضائع الخراسانية والغربية، اضافة الى الارزاق والفواكه وسائر المطيبات كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والاترج والبطيخ والقثاء والخيار وجميع البقول كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب، ومن الرياحين العبقة والمشمومات العطرة. ويجلب لها من اليمن الزبيب الاسود والاحمر شديد الجودة واللوز الكثير وبها قصب السكر ومن الفواكه البطيخ والسفرجل وهي اغلبها مجلوبة من خارج المدينة والفواكه تجلب اليها من الطائف والقرى المحيطة بها.

كما اشار الى تصدير القار من العراق الى ميناء عكة على البحر المتوسط حيث يصدر من هناك الى البلاد البحرية.

٣ ـ طرق ووسائل النقل.

اشار ابن جبير الى طريق الحج الذي قطعه حيث ركب من غرناطة بطريق البر حتى الساحل، حيث استقل مركباً كبيراً من المراكب التي كانت تقطع البحر المتوسط بين موانيه وجزره المنتشرة فيه، ويبدو ان البحر المتوسط كان من البحار المطروقة للمسافرين والبضائع. وان مسالكه كانت واضحة وموانيه تزود هذه المراكب بالماء والحطب والزاد. ولم يشر ابن جبير الى مخاطر قطع الطرق او نهب الركاب. وان الصعوبة الوحيدة التي اشار لها هي هبوب الرياح التي تعرض هذه المراكب الى الغرق واشرعتها الى التكسر. ولكنه اوضح بان المراكب التي تخترقه على نوعين المراكب الصغيرة والمراكب الكبيرة. وان الاخيرة اكثر اماناً من الاولى. فقد اضطر بطريق العودة الرجوع من مدينة صور لانه لم يرغب ان يستقل المركب الصغير الراسي فيها الى مدينة عكا، مرة ثانية حيث اكترى مركباً كبيراً للاقلاع الى مسينة في جزيرة صقلية.

كما قطع نهر النيل من الاسكندرية الى قوص بالمراكب النهرية الصغيرة المعدة لهذا الغرض. ويبدو ان نهر النيل كان مستخدماً للنقل بين الدلتا والصعيد وان المدن الواقعة على شاطئيه كانت مستعدة لاستقبال المسافرين حيث تتوفر فيها الفنادق التي ينزل بها الغرباء.

ثم اشار الى استخدام الجمال وسيلة للنقل في الصحراء وخاصة بين قوص وعيذاب سواء لنقل البضائع الصادرة او الواردة، او نقل المسافرين من التجار والحجاج وغيرهم. ولا تستخدم غيرها لصبرها على الظمأ في هذه الصحراء القاحلة ويكون النقل على نوعين:

١ ـ المسافرون غير المتمكنين حيث يركبون الابل على احمالها فيكابدون من مشقة سموم الحر غماً ومشقة.

٢ ـ المسافرون المتمكنون من ذوي الترفيه واليسار فانهم يستخدمون الشقاديف وهي اشباه المحامل واحسن انواعها اليمانية لانها كالاشاكيز السفرية مجلدة متسعة. يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة. وتوضع على البعير وهنا اذرع قد حفت باركانها، يكون عليها مظلة، فيكون الراكب فيها مع عديله في مكمن من لفح الهاجرة، ويقعد مستريحاً في وطائه ومتكأ ويتناول مع عديله مايحتاج اليه من زاد وسواه. ويطالع متى شاء المطالعة في مصحف او كتاب. ومن شاء ممن يستجيز اللعب بالشطرنج. ان يلاعب عديله تفكهاً واحجاماً للنفس. وبالجملة فانها مريحة من تعب السفر.

ثم استخدم واسطة اخرى لعبور البحر الاحمر بين عيذاب وجدة، اطلق عليها الجلاب. لا يستعمل فيها مسمار البتة. انما هي مخيطة بامراس من القنبار وهو قشر الجوز النارجيل يدرسونه الى ان يتخيط ويفتلون منه امراساً يخيطون بها المراكب ويتخللونها بدسر من عيدان النخيل. فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن او بدهن الخروع او بدهن القرش وهو احسنها. وذلك ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر، وعدد هذه الجلاب والقنبار مجلوب من الهند واليمن.

ثالثاً: المعادن والصناعة

لم ترد عن هذين الموردين سوى اشارات بسيطة شاهدها خلال طريقه المحدود والمرسوم للذهاب الى مكة المكرمة والمدينة المنورة واداء شعائر الحج والعمرة فمن المعادن اشار الى مغاصات اللؤلؤ في البحر الاحمر. وان وقت الغوص عليه شهري حزيران وتموز من كل عام حيث يستخرج الناس الجوهر النفيس.

كما اشار وهو يمر بمدينة القيارة الى معدن القار. حيث قال ان فيها عيوناً كباراً وصغاراً تنبع بالقار. ويقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان، ويصنع منه احواض يتجمع فيها قتراء شبه صلصال منبسطاً على الارض اسود املس صقيلاً رطباً، عطر الرائحة، شديد التعلك، فيلصق بالاصابع لاول مباشرة منه باللمس.

وبمقربة من هذه العيون على شط دجله عين اخرى من القار كبيرة ابصر على البعد منها دخاناً، وان النار تشتعل فيه، اذا ارادوا نقله فتشق النار رطوبته المائية وتعقده، فيقطعونه ويحملونه جميع البلاد الى الشام والى عكة على ساحل البحر المتوسط، ثم ينقل الى جميع البلاد البحرية.

اما الصناعة فقد اشار الى صناعة كبس التمور في مكة المكرمة، حيث عجب من جودة التمور فيها، وعده بمنزلة التين الاخضر في نهاية الطيب واللذاذة لا يسأم التفكه به، ويخرج الناس اليه كخروجهم الى الضيعة او كخروج اهل المغرب لقراهم ايام نضج التين والعنب. وعند نضجه يبسط على الارض قدر ما يجف قليلاً. ثم يركم بعضه فوق بعض في السلال والظروف. ثم تحفظ لحين استهلاكها.

ثم اشار الى صناعة الثياب العتابية المصنوعة من القطن والحرير ذات الالوان مختلفة، والتي اشتهرت في الوطن العربي والاسلامي، وتصنع في احدى محلات مدينة بغداد.

المستوطنات البشرية:

اشار ابن جبير الى كثافة الاستيطان البشري في دلتا نهر النيل ووادية وذلك من كثرة القرى الواقعة بين الاسكندرية والقاهرة وعلى طول وادي نهر النيل حتى الصعيد حيث القرى متصلة وكثيرة مما اضطر ابن جبير الى ذكر القرى الكبيرة فقط وذلك لان ذكر جميع القرى سوف يزيد كتابه ضخامة. كما ذكر بان العمارة متصلة كذلك والقرى منتظمة. وهذا ما يوضح بان دلتا وادي نهر النيل يستأثر بالعدد الكبير من سكان مصر حيث مورد الرزق من الزراعة.

كما اشار الى كثافة الاستيطان البشري عندما اشرف على سهول العراق اعتباراً من الحلة حتى بغداد ثم شمالاً حتى الموصل وفي جميع المراكز الحضرية في بلاد الشام ومدنها الكبيرة.

بينما اشار الى اضمحلال هذا الاستيطان في المناطق

الصحراوية عندما مر بين قوص وعيذاب في الصحراء بين النيل والبحر الاحمر وكذلك عندما غادر المدينة باتجاه بغداد حتى مدينة الكوفة حيث اقتصر المرور على مواضع المياه والمصانع والصهاريج فيتزود منها الحجاج والتجار دون وجود سكن فيها.

اما المدن فقد قسمها ابن جبير حسب اهميتها الى الاقسام التالية :ـ

١ ـ المدن

وهي الحواضر التي تقع في المرتبة الاولى حيث تتميز بما يلي:ـ

أ ـ اتساع مبانيها وعلوها

ب ـ نشاط اسواقها

جـ ـ احتوائها على كافة المرافق كالمدارس والمستشفيات والحمامات وغيرها.

د ـ كثرة سكانها.

ومن هذه المدن الاسكندرية والقاهرة وقليوب وقوص وعيذاب وجدة ومكة والمدينة والحلة وبغداد والموصل ورأس العين وحران وحلب وحماة وحمص ودمشق وبانياس وعكة وصور.

٢ ـ البلدة

وهي اصغر من المدن واكبر من القرى فيها الاسواق وسائد ما يحتاج اليه من المرافق ولكن اسواقها ومبانيها ونشاطها الاقتصادي اقل من المدن. مثل منفلوط التي قال عنها بلدة في نهاية من الطيب ليس في الصعيد مثلها. وقال عن بلدة بزاغة في مصر انها تصغر عن المدن وتكبر عن القرى.

٣ ـ القرى

وهي على نوعين القرى الكبيرة والقرى الصغيرة وقد اشار الى النوع الاول فقط وقد تميزت هذه القرى باتساع مساحتها وخصوبة اراضيها الزراعية وانتشار بساتينها واراضيها الزراعية وخيرات محاصيلها التي تزود بها المدن بما يحتاجون اليه.

القبائل التي اشار اليها ابن جبير

لقد اشار ابن جبير الى قبائل البجاة وقبائل السرو.

فالبجاة هم اهل عيذاب ولهم سلطان من انفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها، ويصل في بعض الاحيان الى مدينة عيذاب ليجتمع بالوالي من الغز،وهم جنس من الاتراك اظهاراً للطاعة اليه.

وهؤلاء البجاة هم الذين يقومون بنقل التجار والحجاج وبضائعهم في الصحراء بين قوص وعيذاب.

وفي طريق عودة الحجاج من جدة الى عيذاب فان الرياح تبعد المراكب الى الجنوب من الميناء بعيداً عن مرسى عيذاب حيث ينزلون في الصحراء فينقلهم البجاة وهم نوع من السودان يسكنون الجبال على الجمال في طريق لا ماء فيه. ويقطع قسم من الحجاج الطريق على قدميه فيهلك قسم منهم عطشاً.

وذكر قبائل السرو وهم من قبائل اليمن الذين يسكنون جبال السراة الحصينة فاشتق اسمهم من اسم بلادهم. وهم قبائل شتى كبجيلة وسواها. وهم يجلبون من الاطعمة ويصلون بالالاف من العدد رجالاً وجمالاً فيجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز والحنطة وسائر الحبوب من اللوبياء وما دونها ولولا هذه الميرة لكان اهل مكة في شظف من العيش. وهم يبيعون بالحرفة والعباءات والشمل فيمد اهل مكة الاقنعة والملاحف المتينة وما اشبه مما يلبسه الاعراب ويبايعونهم ويشارونهم.

ولم يذكر ابن جبير غير هؤلاء في رحلته.

الخلاصة

يلاحظ مما سبق ان بين جبير قد خرج من بلاده حاجاً. وقد التزم بطريق محدد ومرسوم. ومع ذلك فانه قد دون مذكرات يومية عما صادفه وشاهده. ونقل الينا وصفاً دقيقاً لكثير من المدن من حيث عماراتها ونشاط سكانها. فعندما تحدث عن مدينة الاسكندرية قال ومن عجائب هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع احوالهم وهذا القول المختصر يوضح لنا بان نشاط السكان في هذه المدينة مستمر طيلة اربع وعشرين ساعة.

كما لم تقتصر مذكرات ابن جبير على المظاهر الجغرافية وانما تناول كثيراً من الاحداث التاريخية وخصوصاً انه مر في فترة حرجة هي فترة الغزو الصليبي وحكم السلطان صلاح الدين الايوبي الذي اشار الى كثير من اصلاحاته الدينية والادارية والثقافية. وتطرق الى المساجد والمدارس والمستشفيات ولم يتطرق هذا البحث الا الى الجوانب الجغرافية التي اشارت اليها الرحلة.

كما تميزت هذه الرحلة بالدقة في الوصف والتعبير دون اسهاب او تطويل وباسلوب ادبي عال يخلو من الاساطير والخرافات. مما يوضح ان ابن جبير كان على ثقافة عالية وانه دقيق الملاحظة.

ولم يتضح من رحلة ابن جبير انه اقتبس من غيره او راجع المكتبات للقراءة والاطلاع. وانما دون هذه الرحلة مما شاهده بنفسه. وقد اقتبس منه كثير من الرحالة والمؤلفين. لان ما جاء به جديد ولم يتطرق اليه احد غيره. ومن الذين نقلوا عنه العبدري وخالد بن عيسى البلوي وابن بطوطة وابن الخطيب والمقريزي الفاسي والمغربي.

وان الصعوبات التي صادفت ابن جبير في دخوله الى مصر عن طريق الاسكندرية وخروجه عن عيذاب الى جدة، كانت من الامور التي اضفت الى الرحلة معلومات لانها اجبرته على ان يعود عن طريق اخر غير الطريق الذي اعتاد فيه الحجاج المغاربة والمصريين العودة به. فقد سلك طريق المدينة ـ بغداد ـ الموصل ـ دمشق ـ عكا وبذلك وصف لنا طريقاً جديداً ومرّ على بلاد جديدة هي العراق والشام. اضافة الى اشاراته القيمة عن البحر المتوسط والجزر التي تقع فيه وموانيه التي وقف بها مما جعل الرحلة بحق سفر علمي قيم تضم معلومات تاريخية وجغرافية على حد سواء.

المصادر والمراجع

١ ـ (ابن جبير) ابي الحسين محمد بن احمد، ابن جبير ط ٢ مطبعة بريل ليدن ١٩٠٧.

٢ ـ الحسن البصري، فضائل مكة والسكن فيها، تحقيق الدكتور سامي مكي العاني مكتبة الفلاح، الكويت ١٩٨٦.

٣ ـ خير الدين الزركلي، الاعلام. ج ٦ ط ٢ لا يوجد مكان للطبع او سنة الطبع.

٤ ـ شاكر خصباك، في الجغرافية العربية، مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٧٥.

٥ ـ كراتشكوفسكي (اغناطيوس يوليانوفتش) تاريخ الادب الجغرافي العربي ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الاول، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣.

٦ ـ لجنة من ادباء الاقطار العربية، الرحلات، فنون الادب العربي، الفن القصصي (٤) دار المعارف ١٩٥٦.

٧ ـ محمد مصطفى زيادة، رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٩.

• • •

بناء الفاو مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم تعبر عن ارادة السلام.

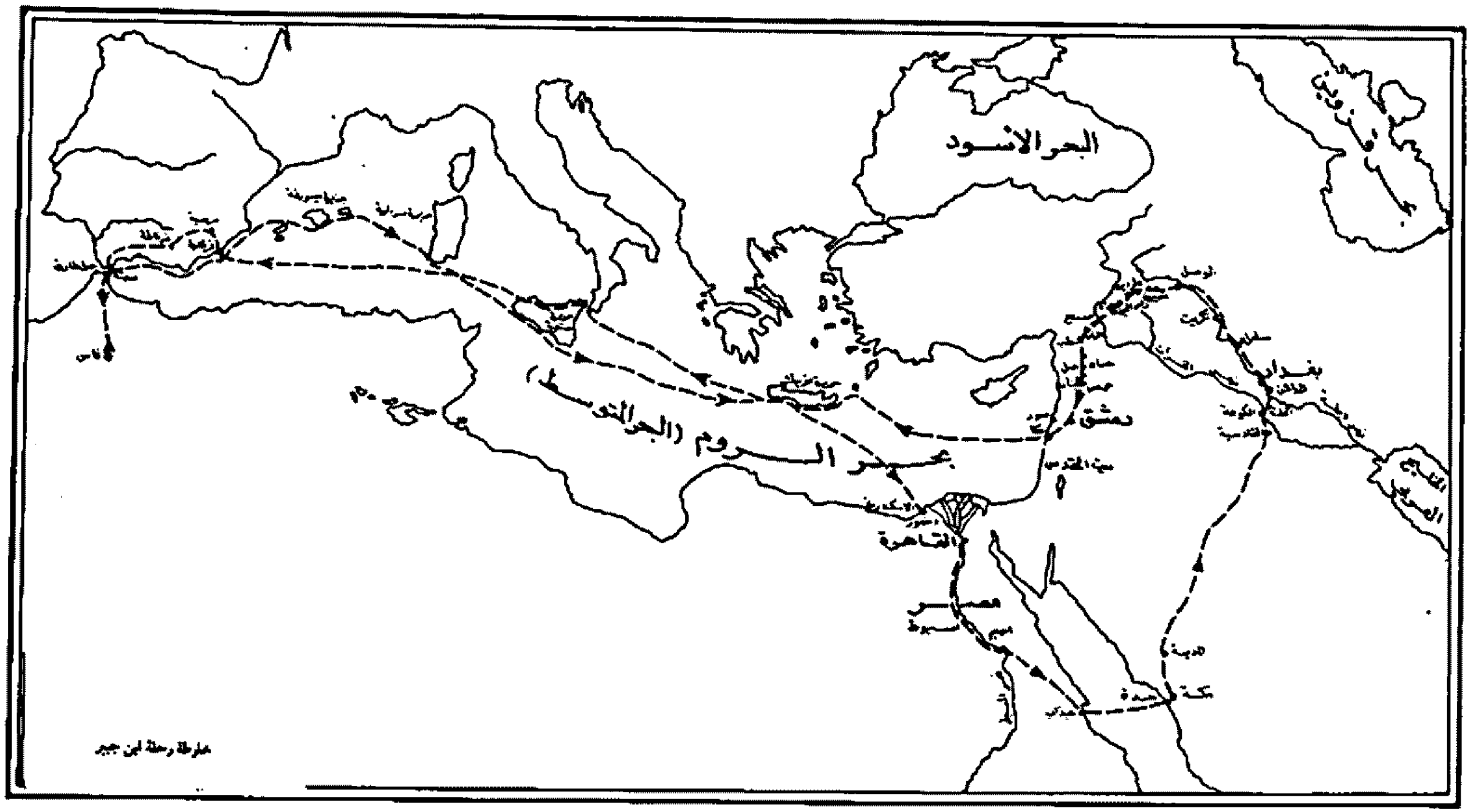
البحر الأسود
بحر الروم (البحر المتوسط)
دمشق
القاهرة
مكة
خريطة رحلة ابن جبير